رحلة عبر المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م(١)

جير الدين رندل(٢)

ترجمة : أ. د. جمال محمود حجر
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

"وسط وشرقي الجزيرة العربية منطقتان نادرا ما زارهما رحالة أوربيون. من بين النساء هناك امرأتان أوربيتان فقط (السيدة رندل هي المرأة الثانية) تمكنتا من عبور الجزيرة العربية من البحر إلى البحر، وأقامتا في الأحساء والرياض، وبدعوة من الملك عبد العزيز، تمكنت السيدة رندل من أن تصطحب زوجها في ربيع عام ١٣٥٥م في هذه الرحلة المثيرة".

لقد اكتسبت المملكة العربية السعودية وحدتها وأهميتها السياسية من رجل واحد عبقري هو الملك عبد العزيز آل سعود، الذي كتب تاريخه أناس أكفاء غيري. فمنذ أن كان لا حول له ولا قوة في منفاه

---

(١) المقالة نشرت في المجلة الجغرافية باللغة الإنجليزية المجلد ٦، العدد رقم ٣ (١٩٣٧- ١٩٣٨م):
The Geographical Magazine, Vol. 6, no. 3 (1937- 1938). "Across Saudi Arabia" Geraldine Rendel

(٢) جير الدين رندل هي زوجة جورج رندل الذي كان رئيسًا للقسم الشرقي بوزارة الخارجية البريطانية خلال الفترة من ١٩٣٠-١٩٣٨م. وقد رافقت زوجها أثناء زيارته الملك عبدالعزيز رحمه الله، وسجلت انطباعاتها في هذه المقالة.

في الكويت منذ ١٨٩١م (١٣٠٨هـ)[٣]، نجح بالتدريج في أن فرض سيادته على معظم أرجاء الجزيرة العربية التي تشح فيها الأمطار، وتخلو من الأنهار، والتي يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين نسمة، وفيها الأماكن المقدسة التي يتوجه إليها المسلمون كل عام (في موسم الحج). هذا فضلا عن موقعها في الطريق إلى الشرق.

حين تسير على أرض المملكة العربية السعودية فإنك سوف تدخل عالمين: عالم قديم وآخر جديد. فعالمها القديم يتمثل في فلسفتها الاجتماعية التي ما تزال منتمية إلى العصور الماضية. وعالمها الجديد ناتج من أنها دولة كبيرة الحجم من مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

ففي شهر المحرم ١٣٥٥هـ الموافق مارس ١٩٣٦م، نزلنا في العقير حيث كانت السيارات تنتظرنا.

تبدو العقير من خليج البحرين بقعة حضرية تقع بين البحر ورمال الصحراء من الداخل. وتتكون من قلعة، وبيت للجمارك، وبعض المنازل، ومرسى للسفن. وبالرغم مما يبدو من انفتاح الجزيرة العربية، إلا أنه لا بد أن يرتدي الأوروبيون الزي العربي (عند وجودهم على أرضها). وفي إحدى الغرف بالطابق العلوي من مبنى الجمارك ارتدينا الزي العربي. فقد ارتديت عباءة مصنوعة من وبر الجمل الأسود مزينة بخيوط ذهبية. ثم وضعت النقاب الأسود الثقيل الذي يميز الزي الخارجي للمرأة العربية. ورفعت العباءة على رأسي لتغطية الشعر حيث تسدل في اتجاه الأسفل نحو الأرض. ولما كنت فارعة الطول فلم تغط العباءة قدمي، وكشف ذلك عن كوني أجنبية في أكثر من مناسبة. لقد كانت (العباءة) لباسا غير مريح بالنسبة لشخص لم يتعود عليها، ولكن ميزتها الوحيدة أنها حجبت العيون الفضولية عني، ويرجع هذا الفضول إلى قلة النساء الأوروبيات اللائي دخلن نجدا.

---

(٣) الصحيح أن وصول الملك عبدالعزيز إلى الكويت مع والده وأسرته كان في عام ١٣١٠هـ.

غادرنا العقير في سيارات (فورد) متجهين غربا عبر الكثبان الرملية. كان هذا السباق فوق رمال الصحراء في اتجاه غروب الشمس تجربة مثيرة. كنا نصعد كثبانا وننزل أخرى، وقد خفضنا ضغط الهواء في الإطارات؛ كي لا تغوص في الرمال. ومن حين لآخر كنا نجد أرضا صلبة حيث كنا نتوقف لبعض الوقت لتبريد محرك السيارة. وكانت ألوان الرمال متدرجة ما بين اللون العسلي إلى اللون الفضي المموج.

وبعد خمسين ميلا من السفر عبر الرمال وصلنا إلى واحات الأحساء الغنية التي تزود نحو سبعين أو ثمانين قرية باحتياجاتها (الغذائية) فضلا عن مدينة الأحساء نفسها عاصمة الإقليم الذي يحمل الاسم نفسه، والأحساء معروفة بحدائقها وعيونها الكبريتية الدافئة، التي تروي كل الواحة، وهي محاطة بأسوار مبنية من الطوب اللبن، وبداخلها قلعة الكوت، وهي محصنة ببوابات قوية وعدد من الأبراج المستديرة، وفي الكوت قصر أمير الأحساء، وفي غرف تمت استضافتنا، كانت غرفنا في الطابق الأول تفتح على رواق يحيط بفضاء به أعمدة بينها درابزين مثقب (أرابسك)، والغرف لها شبابيك عديدة بغير زجاج، ولها مغالق من الخشب، ويمكن إغلاقها إذا رغب الإنسان في ألا يراه أحد من البيوت المجاورة، وغرفة استقبالنا مزودة بمقاعد مرصوصة بجوار الجدران الأربعة، ومع أنها مرتفعة عن الأرض نسبيا إلا أنها مريحة عند جلوس القرفصاء عليها. وبالقرب من السقف فتحات مزينة بأعمال الملاط التي تضفي شكلاً جميلا، والأحساء مشهورة بهذا الملاط المتميز، وكذلك الملاط المحفور المزين على الحوائط، ولقد رأينا كثيرا منه والتقطنا صورة لأحد الحوائط.

وخارج قلعة الكوت السوق في الشارع الكبير الواسع، وهو عبارة عن رواق فيه بواك مستديرة، ومن فوقها حليات مستديرة تفتح إلى داخل البازار (السوق)، وهي (أي البواك) موجودة في جانب واحد من

السوق، وعلى الجانب الآخر سور القلعة والأبراج، والغربيون يقللون من أهمية معظم الأسواق الشرقية، وأهل الأحساء يبيعون ويشترون بشكل طبيعي كجزء من حركة حياتهم اليومية الروتينية دون النظر لأي ملحوظات قد تثير اهتمام الأجانب عن عاداتهم وتقاليدهم؛ فلا شيء يباع إلا ما يحتاجونه لأنفسهم، مثل: التمر والأرز والبهارات والفاكهة واللحم والخضار وبعض احتياجات المنزل البسيطة.

كانت النساء المتسوقات في السوق مهتمات جدا بي شخصيا، فقد اكتشفن بسرعة أنني لست منهن وأنني أجنبية، وأحاطوني من كل جانب، متمعنات في وجهي المغطى بالنقاب (البرقع) ومعظمهن يرتدين عباءة سوداء شفافة خفيفة وباردة أكثر من تلك التي كنت أرتدي، وقد طلبت أن أرتدي واحدة مثلهن، ولكنهن أفهمنني أن السيدات ذوات المكانة المتميزة لا يحسن بهن أن يرتدين شيئا خفيفا كهذا، أما الرجال فأكثرهم كانوا يرتدون عباءات خفيفة بنية اللون أو ذات اللون الكريم ولها حواف مزينة باللون الذهبي. والأحساء مشهورة بالخيوط المذهبة، وكل العباءات الجميلة مصنوعة هناك. والجمال تتجول في السوق على طول الطريق بما تحمل من أمتعة. أما الحمير البيضاء الكبيرة في الأحساء (حمار حساوي) المشهورة في الشرق كله فأرجلها وبطونها مزينة بالحناء تنطلق هنا وهناك جيئة وذهابا عبر السوق، يسوقها أطفال صغار يصيحون دائما بكلمة "بالك! أي" انتبه! ، وهم يندفعون وراءها.

وبعد ذلك زرنا البساتين وعيون الماء، وإحدى هذه العيون تدعى "خدود"، وتقع على بعد ثلاثة أميال خارج الواحات، ترتفع مياهها من وسط بركة عميقة مياهها تجمع بين اللونين الأزرق والأخضر، وتتوزع المياه المتدفقة نحو بساتين النخيل وحقول الأرز بقوة الدفع الذاتي، وجمال هذه البركة أنها تشبه الجوهرة وسط أشجار النخيل، وهي حينما تعكس صور هذه الأشجار على صفحة المياه إنما تشكل منظرا

لا يمكن نسيانه. و"أم السبعة" منطقة أخرى جميلة متسعة أكثر وتتخللها الشمس أكثر من منطقة "خدود"، فالمياه تتدفق على شكل فقاعات من وسط الصخور في وسط بحيرة عميقة، والمياه صافية لدرجة أن الإنسان يستطيع أن يعد الحصى في قاع البحيرة بسهولة، وهذه البحيرة تغذي سبعة مجار مائية مختلفة المستوى تتدفق فيها المياه لري الحدائق.

وقد شاهدنا عينين كبريتيتين تستخدمان للاستحمام: إحداهما "عين نجم" والأخرى "عين الحارّة"، وعين نجم مغطاة تماما، فقد بني فوقها بناء يستخدم في الاستحمام المغطى. وعين الحارّة دافئة، وتستخدم للاستحمام المكشوف (الخارجي) وفيها فاصل يحجز جزءا منها لاستخدام النساء.

وتحت أشجار النخيل تنمو أشجار الفاكهة، كالخوخ والرمان والموالح والليمون وجميعها كانت مزهرة، وبعض البساتين فيها استراحات صيفية، والاستراحة التي زرناها فيها حمام سباحة. وفي إحدى هذه الاستراحات تمت استضافتنا بكرم وافر، فقد كان هناك طاولة ملأى بالفواكه والحلوى واللقم، والبسكويت الرائع بأنواع مختلفة، فضلا عن أنواع من الفاكهة والياميش، وقد قدم لنا الشاي في أكواب صغيرة، وأكلنا وتكلمنا وبقينا حتى غروب الشمس.

ومع غروب الشمس خرج أخو مضيفنا من البيت وأذن للصلاة، ونهض مضيفنا من مكانه على الطاولة، ونهض الجميع، ووقفوا في صفين الواحد خلف الآخر، حيث فرشت سجادة لأحدهم ليؤم المصلين.

وكان رحيلنا من الأحساء أشبه ما يكون بالزفة، فقد تجمع عدد كبير من الناس خارج قصر الأمير ليروا أمتعتنا وقد وضعت على الشاحنات، والسيارات الفورد الأربعة. وقد زودنا مضيفنا ببعض الأثاث لتحقيق قدر أكبر من الراحة، مثل: طاولة كبيرة للطعام وستة كراسي، وكانت (أرجلها) بارزة من الشاحنة مثل: أشواك القنفذ.

كان طريق القوافل من الأحساء إلى الرياض يتجه غربا، ولكن السيارات كانت تأخذ اتجاه الشمال الغربي لتتفادى وعورة بعض المناطق، ومع ذلك فقد كان السير على غير ما يرام في بعض الأوقات، وخاصة في المناطق الرملية، التي كنا نفقد فيها القدرة على الحركة تماما.

وبعد حوالي خمسين ميلا من الأحساء واجهتنا أولى المشكلات مع الرمال، ولكننا نجونا بالسلامة في النهاية، ووصلنا إلى عريرة متأخرين بعد الظهر، وعريرة: هي إحدى هجر الأخوان المهجورة من قبيلة العجمان، وتتكون من سبعة بيوت مبنية بطريقة جيدة، وسبع أشجار من نبات الطرفاء، وثلاثة آبار مياهها عذبة، وقد ملأنا منها القرب الجلدية. والأخوان: هم القوة القتالية الوهَّابية(٤)، مثلها مثل قوات كروميل في إنجلترا، كوَّنها الملك عبدالعزيز في عام ١٩١٠م(٥). والوهابيون مسلحون محافظون، وينتمي إليهم معظم السكان في المملكة العربية السعودية، وعقيدتهم تمنعهم من تعاطي الكحول والدخان، ومن الاستماع إلى الموسيقى أو الرقص، كما تمنعهم من التصوير أو نحت التماثيل. فلم نجد صورة أو تمثالا في نجد، ولا أذكر أنني رأيت بين السجاد الجميل الذي شاهدته على طول الرحلة أي صورة لحيوان أو طائر.

وفي تلك الليلة أوينا أسفل حافة إلى الجنوب من الطريق على بعد ثلاثين ميلا من العريرة، فقد هبت رياح شمالية شرقية عند غروب الشمس، وكانت تلقي بالرمال علينا، ولم يكن ذلك أمرا مريحا أبدا. وكانت الشاحنة التي تحمل أمتعتنا ما تزال خلفنا، ولا نعرف بالتحديد

---

(٤) ما ذكرته الكاتبة هنا يقع ضمن الأخطاء الشائعة لدى الكُتّاب الغربيين عن الدولة السعودية من خلال استخدام مصطلح الوهابية، وكأنه يجمع نوعية محددة من الناس. وهذا خطأ.

(٥) الأخوان هم جزء من قوات الملك عبدالعزيز التي تتضمن أيضًا القوات من الحاضرة. أما الذي أسسه الملك عبدالعزيز في عام ١٩١٠م فهو الهجَر التي استقرت بها القبائل، وأسهمت في تكوين الجيش السعودي ضمنَ العناصر الأخرى.

على أي بعد منا، وكانت معنا سيارة واحدة مكشوفة، كنا نتوارى خلفها من الرمال، جمعنا الحطب وأشعلنا النيران التي أضاءت المكان من حولنا وتجمعنا حولها، وأعددنا الشاي مستخدمين علبة بترول فارغة. وبمرور الوقت، وصلت الشاحنة التي كانت خلفنا، ونصبنا خيامنا، ورحت في نوم عميق بالرغم من صوت الرياح واهتزاز الخيمة.

أما المنطقة التي عبرناها في اليوم التالي فقد كان بها خيام كثيرة للبدو منصوبة، وقطعان من الجمال ترعى. وذهبنا إلى إحدى هذه الخيام القريبة من الطريق، وسألناهم بعض الحليب، فرحبوا بنا وأحضروا لنا سطلين (جردلين) كبيرين مملوءين بحليب الجمال، وغرفنا بأوعيتنا منها، وجعلنا نشرب حتى ارتوينا. كان للحليب رغوة عالية مثل رغوة البحر، ووجدت أنه لذيذ جدا. وكذلك أحضروا لنا بعض اللبن (الرائب) الذي كان به طعم الجبن القوي، وكان ملمسه متماسكا.

وزرت النساء في خيمتهن، فوجدتهن يقلبن إناء على النار فيه مرق أبيض بحزمة من عظم الجمل الرقيق الجاف، وقلن لي: إنه نبات الرعد (الكمأة) يطبخ بالحليب. وهذا النبات ينمو بشكل جيد في شرقي الجزيرة العربية، والطبق منه محبب في الصحراء. لقد سبق لي أن تناولته في البحرين وكان طعمه لذيذا، لحظت أن المرأة البدوية ليست مغطاة الوجه تماما كما هو شأن المرأة في المدينة، فهي تضع قناعا بدلا من الغطاء (البرقع) تاركة عيناها حرة، وهذا يعينها على مساعدة زوجها في العمل، وحين تتعامل مع الحياة الصعبة في الصحراء.

وجاء ثلاثة من الرعاة أعمارهم عشر سنوات وثمان وست ليتعرفوا علينا. وهم يشبهون "آلهة الرعي" عند الرومان بأجسامهم النحيلة الطرية وثيابهم الرثة المهلهلة، ووجوههم الجادة الذكية، فقدمت لهم "شيكولاتة"، فنظروا إليها بشيء من عدم الثقة، وحينما أغريتهم

بتذوقها في النهاية بصقوها بقرف واضح!

ومع منتصف النهار هبطنا من منطقة مرتفعة إلى رمال الدهناء، ومع أنها تبدو على الخريطة منطقة رملية، إلا أن هذه الرمال خصبة، وتعد واحدة من أراضي المراعي الكبيرة في الصحراء الشرقية، ولا بد أننا عبرنا حوالي ألف ميل من الأرض المسطحة المغطاة بالنباتات الشوكية ذات الزهرة ونبات الشعير، وخضراوات أخرى، وجمال كثيرة ترعى، وبعض خيام البدو المتناثرة هنا وهناك، وتركنا هذه المنطقة على طولها إلى بلد له طبيعة مختلفة، فوصلنا إلى آبار رماح، (Ramah Wells). وهنا ستة آبار مهمة، وعليها جمال تسحب الماء من أكبرها.

وصلتنا رسالة من الأمير سعود ولي العهد، تقترح أن نقضي الليلة في مخيم صيده في الرمحية على بعد خمسة عشر ميلا من موقعنا قبل أن نواصل الرحلة إلى الرياض، كانت زيارتنا لهذا المخيم ممتعة للغاية، فقد أقمنا في مكان فخم عبارة عن صيوانين كبيرين يتبعان الأمير سعود، تأخذ بخيال الواحد منا إلى تلك الصور الخيالية أيام هارون الرشيد، مبطنة بقماش أحمر وذهبي، ومغطاة بالسجاد العجمي الفاخر، وعلى أرضية خيمة النوم مخدع أو سرير عليه وسائد حريرية.

فزعت حين رأيت صقور الأمير ذات العيون الحادة الجميلة وهي واقفة على معصم رعاتها، وكل واحد منها يستجيب لندائه باسمه، وقد رفع غطاء الرأس عنها لعلي أمسح بيدي على رأسها، فالصقور تحب ذلك.

وقبل أن نغادر المخيم في الصباح، جمعت الجمال والقطعان للمعاينة. فقد كان هناك قطيع كبير من الأغنام ذات الوبر البني والوبر الأبيض، والماعز، وكذلك ثلاثة أسراب من الجمال ومعها نحو سبعين أو ثمانين من الصغار، والجمل الصغير مخلوق مدهش، له وبر

صوفي بألوان مختلفة من الكريم والبيج والبني، وله أرجل جميلة متخبطة (غير منتظمة السير) تسير في كل اتجاه. وبعض صغار الجمال المولودة حديثا تكاد تسير بصعوبة. كانت هناك لحظات مثيرة حينما كانت هذه الصغار تعزل عن أمهاتها، لكي تتهيأ لنا الفرصة لالتقاط بعض الصور لها.

الطريق إلى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية يأتي ميلا بعد ميل على هضبة بلون التراب الحديدي يقطعها حواف من التلال بدون أية علامة للخضرة. وأخيرا بدا خط باهت من الحوائط (الأسوار) والأبراج في الصحراء، وحزام أخضر وسط الصحراء كما لو كان قد رسمه فنان بالقرب من العاصمة (المدينة)، إنها بساتين النخيل في واحة الرياض.

الرياض محاطة بسور مبني من الطوب اللبن وعليه أبراج على مسافات متباعدة. ودخلنا المدينة من بوابة الثميري التي تقود إلى شارع واسع فيه بيوت عالية من الطين والحجر الجيري بنيت على طول الطريق إلى ميدان القصر، وهو ميدان جميل جدا، يطل قصر الملك عبدالعزيز على الجانب الغربي منه، بينما يطل على الجانب الشرقي بيت ضيافة لشيوخ القبائل، وهناك صفان من الأعمدة تصلان ما بين الجانب الشرقي والجانب الغربي وتغلقان الجهة الشمالية. وحينما يكون الملك مقيما لفترة تبلغ ستة شهور أو سبعة في السنة، يكون الميدان مزدحما بالبدو الذين يأتون لمناقشة شؤونهم معه، ويسمح لهم بأن ينصبوا خيامهم في الميدان لمدة ثلاثة أيام، وهي المدة التقليدية للضيافة في الصحراء دون مقابل.

وقصر الملك عبدالعزيز مبنى عال محصن ببرجين قويين، ومزين بخطوط بسيطة على جدرانه؛ فهو بلا شك جميل في نموذجه، وهو يبين لي كيف سيكون مستقبل العمارة في المملكة العربية السعودية، وهو محاط بمجموعة من القصور الصغيرة لأبناء الملك، وهذه

القصور متصلة بالقصر الملكي بأقواس وممرات، وكامل المنطقة ذات الطابع الملكي لا بد أن تكون أهم جزء في المدينة.

وخلف ميدان القصر يقع السوق والجامع الكبير، والجامع شأنه شأن المساجد في نجد بسيط للغاية، له مئذنة قصيرة ومتواضعة، دون أي شكل خارجي من أي نوع، ويسمح للمسلمين فقط بدخول الجامع في المملكة العربية السعودية، ولذلك فإنني لم أر قط ما بداخله، أما السوق فأقل في مستواه من سوق الأحساء.

وأثناء زيارتنا للرياض أقمنا في "قصر البديعة الجديد"، وهو أحد قصرين بناهما الملك عبدالعزيز في ظروف مختلفة، واحد لنفسه والآخر لولي العهد. وهما قائمان على الحافة الغربية لوادي حنيفة على بعد خمسة أميال تجاه الشمال الغربي من الرياض، وهما يطلان عبر الوادي على مسجد صغير في الاتجاه المقابل. والقصر الجديد مبني من الطين والحجر الجيري حول ساحتين مفتوحتين (صحنين) على الطريقة الإسلامية التقليدية، والأبواب والسقوف مصنوعة من خشب جذوع النخل وأشجار الطرفاء. وقد وجدنا هنا كذلك أشكالاً من الجبس شبيهة بما أعجبنا به من قبل في الأحساء، وهذا النوع من الأشكال الزخرفية يظهر لي بوضوح، فهو يكسر حدة لون الحوائط الخالصة البياض، دون أن تفقد الحوائط رونقها وبساطتها. والأبواب جميعها مدهونة بألوان مبهجة وكأنها تعطي انطباعا بالترحيب الدافئ وسط اللون الأبيض الشامل.

وخلف القصر حديقة نخيل كبيرة تروى عن طريق آبار عميقة، وهذا النوع من الآبار يعرف بـ"السانية"، وتستخرج منه المياه إلى أعلى، إذ يسحبها ستة حمير حساوية. فكل حمار يسحب إلى أعلى قربة من الجلد تفرغ تلقائيا في قناة مائية حينما يصل الحمار إلى نهاية مرحلة السحب. والأصوات الناجمة عن عملية السحب هذه مستمرة ومتواصلة، وتعرف بأنها أركسترا الحمار.

وإلى أعلى من وادي حنيفة وعلى بعد عشرة أميال من الرياض، تبدو خرائب الدرعية، العاصمة الوهابية لنجد تحت حكم تركي بن عبدالله(٦). وقد دمرت المدينة تماما بقوة النار والسلاح في عام ١٨١٨م (١٢٣٣هـ)، حين هاجمتها قوات محمد علي، وقد بنيت الرياض لتحل محلها كعاصمة. إن بقاء الأسوار العالية حتى الآن وبساتين النخيل فيها وأشجار الفاكهة لدليل واضح على الأيام العظيمة أيام الوهابيين.

غادرنا الرياض في ١٢ مارس عبر وادي حنيفة عند "الجبيلة" حوالي ثمانية عشر ميلا في اتجاه الشمال الغربي، ومن هناك عبرنا "العيينة" وفوق جبل طويق إلى بلاد ذات طبيعة مختلفة بها قرى محصنة في "البره والعويند"، وبعد المرور في أرض فاصلة بدت قرية "مرات". ويقال: إن فيها ثلاثة آلاف نسمة، وأسوارها الطينية ذات لون أحمر غامق، مثلها مثل لون تربة مقاطعة ديفون Devonshire (بإنجلترا). فيها حدائق كبيرة للنخيل تمتد إلى ما وراء أسوارها. وقبل "مرات" مباشرة ترى "نفود طريف الحبل"(Nafud Turaif Al Habl)، وهي حافة طويلة لون رمالها برتقالي- بنفسجي تقع إلى الشمال من طريقنا، وقد رأيناها في أول الأمر كما لو كانت سرابا، وكلما اقتربنا منها نجد السراب يختفي، ولون الرمال يتجه للون اللهب مع وجود نباتات شوكية، ونباتات عشبية في الأرض المجاورة، وهي تشكل صورة مركبة متكاملة الألوان لا أستطيع نسيانها بسهولة، وبعد ذلك عبرنا رمال القنيفذة.

---

(٦) كانت الدرعية عاصمة للدولة السعودية الأولى التي أسسها الإمام محمد بن سعود وسقطت في عهد الإمام عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد في عام ١٢٣٣هـ بسبب هجوم القوات المصرية العثمانية عليها بقيادة إبراهيم باشا، وما أشارت إليه رندل هنا أن الدرعية كانت عاصمة للدولة السعودية في عهد الإمام تركي بن عبدالله غير دقيق؛ لأن الإمام تركي بن عبدالله هو مؤسس الدولة السعودية الثانية، واتخذ الرياض عاصمة للدولة.

وعندما كانت الشمس تغرب وصلنا حافة "نفود السر"، كانت هذه الرمال الناعمة المتحركة أكثر المناطق التي عبرناها صعوبة، ولم يجعل عبورها سهلا مرور نحو ثلاثمئة سيارة كانت تشكل موكب الملك عبدالعزيز وأسرته ومرافقيه في رحلة الحج إلى مكة؛ فالطريق سيىء في كل الأحوال، ومع ذلك فقد أصبح أكثر سوءا؛ مما اضطرنا إلى تركه في بعض المناطق، وسلوك طريق خاص بنا لكي نعبر الرمال الناعمة بأمان. وكان من الضروري أن نسير بأقصى سرعة ممكنة؛ لأن السير البطيء يعني التوقف، والتوقف يعني الغوص في الرمال... وقد استغرق الأمر خمسين دقيقة لنعبر هذه الرمال، وقد أمضينا ربع الساعة الأخيرة نقود في الظلام، لقد تنفسنا الصعداء حين وجدنا على بعد ميل أو ميلين قلعة الدوادمي وقرية الدوادمي، حيث اقترحنا نصب خيامنا لقضاء الليلة. وباستثناء قلعة المويه التي ستأتي بعد ٢٥٠ ميل، تعد الدوادمي هي المكان العامر لمسافة ٥٠٠ ميل على هذا الطريق.

لكي ينصب الإنسان خيمة لا بد من أدوات إقامة هذه الخيمة، وأدواتنا كانت في الشاحنة التي غاصت في رمال النفود التي عبرناها نحن، وكذلك السيارة التي تحمل المؤن تتبعنا عبر الرمال، فبتنا دون فراش ودون عشاء، ولم أكن أعرف ما الذي نتوقعه أسوأ من ذلك، ولكن أمير قلعة الدوادمي حل لنا مشكلاتنا، حين هيأ لنا غرفة في أعلى القلعة، كما ذبح لنا شاة للعشاء، ولما كنا غير مستعدين لوجبة كهذه في ذلك الوقت المتأخر، إذ كانت الساعة العاشرة، اكتفينا بالشاي والبسكويت و "الشيكولاتة". وفرشنا ما لدينا من مفارش وأغطية على الأرض، ونمنا ليلة غير مريحة؛ ولكن الذي يسر علينا الأمر ما سمعناه من أصوات الشاحنات والسيارات قادمة الواحدة بعد الأخرى على مدار الليل.

بتنا دون فراش ودون عشاء، ولم أكن أعرف ما الذي نتوقعه أسوأ من ذلك

كان الطريق الذي عبرناه في اليوم التالي صعبا فقد كان ممتلئا بالصخور الجرانيتية والبازلتية السوداء، وبالقرب منه ظهر السراب كأنه ماء بينما الحر يلفح وجوهنا، مع أن الوقت كان منتصف مارس، ولكن الحرارة كانت عالية عند منتصف النهار، مصحوبة بحركة هواء خفيفة حارقة تطير الرمال الساخنة في شكل أعمدة حلزونية إلى أعلى، وقد أدركت الآن كيف وردت تلك المناظر المخيفة التي تبدو كأنها من صنع العفاريت إلى خواطر كتاب القصص الخيالية عن الجزيرة العربية.

وقد التقينا بكثير من الشاحنات المحملة بالحجاج العائدين من مكة بالقرب من آبار "عفيف".

وبعد أن قطعنا مئتي ميل أقمنا معسكرا مريحا في "الدفينة"، وجاءنا عدد من البدو الذين كانت خيامهم متناثرة هنا وهناك، وكانت نيرانهم تسطع في الظلام، فتعشوا معنا؛ فمن المعروف أن من يطبخ في الصحراء يكون مضيفا للبدو، إذ حينما يرى البدو نارا عند إحدى الخيام يأتون جميعا مُرَحِبًا بهم على الدوام ويجلسون مع الآخرين، أو كما يقال فإنهم يضيفون أنفسهم.

كانت الخمسين ميلا الأولى من رحلتنا صباح اليوم التالي عبر هضبة ملحية كبرى تعرف باسم "خبرا خال"، وكانت أجزاء من هذه السبخات غروية لاصقة مغطاة بالملح تشبه الثلج الذي تساقط لتوه في المناطق الباردة. وكان توقفنا الأول عند "قلعة المويه". وهي تستخدم كمخزن للبترول، وتعد نقطة فاصلة بين نجد والحجاز، وهي نقطة مهملة، شوهتها مخلفات القوافل وخزانات النفط.

وبعد الظهر وصلنا "عُشيرة"، إحدى المناطق التي يفضل الملك عبدالعزيز أن يقيم فيها أثناء رحلاته، وهي خضراء وفيها أشجار، وفيها بئران جيدان مغطيان بحجر ضخم مسجل عليه إشارة تقول: إنهما أعيد بناؤهما بواسطة الملك عبد العزيز، وفي هذا المكان

قضينا ليلة طيبة في مخيم كان مجهز مسبقا من أجلنا، وما أن سمع مضيفنا أننا قد تركنا كثيرا من لوازمنا في النفود أرسل يطلب لوازم بديلة من مكة، وكذلك أرسل لنا طباخًا ماهرًا أعد لنا وجبات طيبة مشبعة بعد معاناة وجوع الصحراء. وفي عُشيرة وصلنا إلى حافة هضبة وسط الجزيرة العربية، حيث تصل هنا إلى أقصى ارتفاع لها (نحو ٤٠٠٠ قدم) قبل أن تنزل إلى السهل الساحلي. وفي اليوم التالي وصلنا إلى "الطائف"، ثم إلى تلال "الشفا" تاركين سياراتنا ومتسلقين المرتفعات في بعض المناطق بإرشاد من رجال القبائل الذين بعث بهم أمير الطائف. إنها منطقة صخرية جميلة جرانيتية، بارتفاعات تبلغ ثمانية أو تسعة آلاف قدم، وفيها وديان ضيقة.

عدنا ثانية إلى عشيرة في طريقنا إلى جدة، فالطريق المباشر من عشيرة إلى جدة يمر بمكة، وهو طريق مغلق في وجوهنا؛ لأنَّنا غير مسلمين. ولهذا كان علينا أن نسلك طريقا بديلا أطول منه عبر وادي فاطمة يدعى درب النصارى، ولكننا أخبرنا أن أمطارا غزيرة هطلت عليه. ولذلك كان علينا أن نتوجه نحو الشمال حيث نغادر عشيرة في الصباح التالي لنسلك الطريق الجديد الذي أنشأته شركة التعدين العربية السعودية، وهو طريق أطول، يسير عبر هضبة عالية من الصخر الأسود تعرف باسم "الحرة"... ثم وصلنا إلى الهضبة الساحلية في تهامة الواقعة بين الجبال والساحل. وحين وصلنا جدة في المساء وجدنا أنفسنا على أرض رملية من جديد.

وهنا في جدة انتهت رحلتنا فارتدينا الزي الغربي عندما دخلنا المدينة، وانفصلنا عن مرافقينا في الرحلة من العرب بكل أسف. ومن ناحيتي أقول بصدق: أتمنى بسعادة أن أبدأ هذه الرحلة من جديد من أولها إلى آخرها.